حسرات من نوع آخر

١٥/ ١/ ١٤٣٨هـ

في النصف الأول من عام ١٤٢٠هـ كنت في زيارة للأردن، ولعاصمتها عمّان تحديدًا، فعزمت على رؤية الشيخ العلامة، محدِّث العصر ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبعد جهدٍ جهيد وصلتُ إلى بيته في (ماركا الجنوبية)، وكم كانت فرحتي حين رأيت اسَم الشيخ على البيت بنفس الخط الفارسي التعليق (محمد ناصر الدين الألباني)!

لكن هذه الفرحة سرعان ما تبددت حين باءت محاولاتي بالفشل مع أهل بيته -وأنا ألتمس الدخول عليه- حيث اعتذروا بمرضه، وعدم إمكانية الدخول عليه، لم يشفع لي إخبارُهم أنني قادم من السعودية، ولا أنني سأسافر قريبًا، ولا شيءٌ من تلك التوسلات التي لم يدفع إليها إلا الحبُّ الكبيرُ لهذا العالم الجليل، وبعدها بأسابيع قليلة، وإذا بخبر وفاته! رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورفع درجاته، وجمعنا به في عليين.

تذكرتُ موقفي هذا، وتذكرتُ معه تلك الحسرات التي زفرتها قلوبُ المحبين، والكلمات الصادقة التي ترجمت مكنونات الأفئدة، لأولئك

الأعلام الذين رحلوا ليلقوا علماءَ أكابر، فسبق القدَر؛ فحال بينهم وبين لقائهم هادمُ اللذات، ومفرّق الجماعات.

ومن أكثر المواقف التي تقطر حُزنًا في التعبير عن هذا المعنى: ما سطّره عبدالله بن حامد الشافعي، في رسالته لابن رُشيّق رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في التعبير عن أسَفه على فوات لقاء شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث يقول: «ولما حججتُ سنة ثمانٍ وعشرين وسبع مئة صمَّمت العزمَ على السفر إلى دمشق لأتوصل إلى ملاقاته، ببذل مهما أَمكن من النفس والمال للتفريج عنه، فوافاني خبرُ وفاته -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- مع الرجوع إلى العراقِ، قبيل وصولي الكوفة! وجدتُ عليه ما لا يجده الأخ على شقيقه -أستغفر الله- بل ولا الوالد الثّاكِل على ولده، وما دخل في قلبي من الحزن لموت أَحدٍ من الولد والأقارب والإخوان كما وجدته عليه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- ولا تخيّلته قط في نفسي، ولا تمثّلتُه في قلبي؛ إلا ويتجدد لي حزنٌ قديمُه كأنه مُحدَث، ووالله ما كتبتُها إلا وأَدمعي تتساقط عند ذكره أَسفًا على فراقه وعدم ملاقاته، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

ومن أشد اللحظات التي يستشعرها الإنسانُ -وهو يتذكر هذا المعنى- تلك الحسرات التي وجدها من رَحَلَ من بلده ميمّمًا وجهه شطر مدينة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قاصدًا لقاء صاحبها عليه الصلاة والسلام، والتشرف برؤية ذلك الوجه الأنور، والجبين الأزهر، وإذا به يسمع خبرَ وفاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينزل كالصاعقة عليه! وهذا ما وقع لجماعة من المخضرمين، من أشهرهم: عبدالرحمن بن عسيلة الصنابحي المرادي

(١) انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص٢٤٣).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي بلغه موتُ النبـــي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بالجحفة -وهي تبعد عن المدينة ١٨٣كم- ليصل المدينة بعد خمس ليالٍ من وفاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! يا الله! أي أشـــواقٍ ولواعـــج كانت تعتلج في قلـــب الصنابحي وهو في الطريق! وأي أقدامٍ تلك التي حملتْه بعد ســـماع الخبر؟! وما مشاعره وهو يمرّ بالقبر الشريف الذي لم يجفّ بعد، ولم تزل آثارُ الأيدي عليه!

هذه الحسرات تتجدّد اليوم في صورٍ شتى، يقرؤها الإنسانُ في نبرات أولئك الذين فرّطوا في الإفادة من علم عالمٍ كان في مدينتهم، أو في جامعتهم.

وتأتي في قالـــب الندم -في آخر العمر- على التفريط في ســـنيّ العمر الأولى وبواكير الشـــباب، حيث لم يغتنمها في شيءٍ ينفع، ويفيد، ويكون رصيدًا تَقرُّ به عينُه في الدنيا قبل الآخرة!

ومـــن أرقى هذه العبـــارات الممتزجة بالعبَرات: تلـــك الأماني التي ســـطّرها جمعٌ من العلماء في أواخر أعمارهم عـــلى التقصير في تدبر كتاب الله والتأمل فيه، والعيش معه وفي ظلاله، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي قال كلمتَه الشهيرة: «قد فتح اللهُ عليَّ في هذا الحصن في هذه المـــرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم؛ بأشـــياء كَانَ كثيرٌ من العلماء يتمنونها، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»[1]!

والســـؤال الأهم بعد هذا: لماذا ينتظر أحدُنا تلـــك اللحظات ليبثّ حسراته، ويعبّر عن ندمه؟ ولماذا لا يجعلُ له مشروعًا كبيرًا يستهلك أكثرَ أوقات العمر، وتندرج تحته مشروعات صغـــيرة تخدم المشروع الكبير؟

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٤/ ٥١٩).

فإن زمانَ النشـــاط والقـــوة البدنية والذهنية لا يتهيـــأ كلَّ وقت، ونعوذ بالله من تقطّع العمر بغير طائـــل، وخَتْمِهِ بحسراتٍ البطّالين! ورحم الله الشافعي إذ يقول:

إذا هبَّـتْ ريـاحُـك فـــاغتنِمْهـا

فعقْبَى كلِّ خـــافقـــةٍ ســـــكونُ